فصائل كبيرة في سوريا عن استفادتها ممّا ادعت أنه «خبرة فلسطينية في حفر الأنفاق». من جهة مقابلة، تخجل فصائل فلسطينية في سوريا من البوح بطبيعة مشاركتها في المعارك تحت عنوان حماية المخيمات؛ وبغض النظر عن مصداقية هذا الشعار، فإن مشاركتهم ـ لحسن الحظ ولسوئه ـ أنقذت الفلسطينيين السوريين داخل سوريا من موقف معادٍ لدى الحكم والبيئات الموالية، في مقابل أن «خبرة حفر الأنفاق» لم تنقذ طفلاً مريضاً وجريحاً من الذبح بالسكين!

رغم كلّ ما سبق، ليس هذا بيت القصيد؛ إنما تكمن الإشكالية الخطيرة في موقف البيئة العربية والإسلامية التي صار يسهل ـ للأسف ـ تسميتها بـ«البيئة السنية». في هذه البيئة، ثمة فئات عدة لعلّ أهمها: القوميون واليساريون، والمتدينون، والبيئة الشعبية العامة، والناشطون الإنسانيون. نبدأ من الفئة الأخيرة، فهذه لا مشكلة لديها في التأثر بما حدث في سوريا تجاه ما حدث ويحدث وسيحدث في فلسطين. هؤلاء جاهزون للبكاء على الإنسان في أي وقت وظرف، وهم فعلياً ـ خاصة المرتبطين بمؤسسات المجتمع المدني وبالمانحين الدوليين ـ لا يُعوّل عليهم في أي تغيير.

عقّد الموقف المعالجة الامنية بحق رافضي التحشيد السياسي والإعلامي والديني (أي بي ايه)

من الصعب على البيئات المجتمعية الفصل بين القضية الفلسطينية وتصرفات بعض الفلسطينيين

بالنسبة إلى الفئة الثانية (المتدينون)، هؤلاء لهم تفرعات كثيرة لكنّ الصنف الذي يظهر فلسطينيون كثر تعاطفهم معه، يُثبت منذ أكثر من أربعين سنة قبل الأزمة السورية برمتها، أن فلسطين خارج أولوياته، وأنه مستعد ليذهب ويحارب في كل مكان إلا فلسطين، وهذا الأمر أوضح من الشمس، ولا دلالة على شمس، بل لدى تيارات كثيرة تنظيرات عقائدية وفقهية تؤخر فلسطين، ليس إلى المرتبة الثانية، إنما إلى ما وراء الزمن.

أما الفئة الأولى (القوميون واليساريون)، فهي كانت قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى بالافتراق عن مواقف الإسلام السياسي وحركاته، ولم يظهر، ولن يظهر غالباً، عليها أي تغيير جذري في موقفها من القضية الفلسطينية.

الفئة الثالثة هي محل الخوف والخشية، خاصة أن وسائل إعلام عربية، حتى فلسطينية، قدمت في أولويات العرض حروب الإقليم على قضية فلسطين؛ تكفي الإشارة إلى قناة فلسطينية كانت تمتاز بنقل البث المباشر من ساحات المسجد الأقصى في الإفطارات الرمضانية، تخلّت ذات رمضان عن هذا الامتياز مقابل النقل من ساحة رابعة العدوية في مصر، لتعود وتتدارك الموقف بقسم الشاشة إلى نصفين أحدهما لرابعة والثاني للأقصى، فيما كان الصوت من نصيب النصف الأول!

هذه الفئة الشعبية الواسعة، التي تعرضت لتشويش كبير، باتت لا ترى بسببه التطبيع والتنسيق مع الاحتلال (بكل عناوينه بما يشمل المعارضة السورية المصنفة معتدلة أو جهادية) تطبيعاً مجرَّماً يوجب الإدانة والرفض. هذا إن لم يكن التطبيع سبباً في تغيير الموقف والاصطفاف، أو على الأقل اللجوء إلى دائرة الحياد.

إن تضخيم ما حدث في حلب، رغم الملاحظات المتعلقة بكمّ الصور والأخبار عما حدث هناك والتغطية على استهداف المسلحين في المدينة للمدنيين طوال خمس سنوات وإخلالهم بالاتفاق الخاص بنقلهم وغيرها من ملاحظات محقّة، يعني في أقل تقدير أن سكين الذبح الإسرائيلي عندما ستطاول غزة، لن تكون أقسى وأشد وقعاً على هذه البيئة بسبب الصورة التي نرسمها لها، علماً بأنها (البيئة «السنيّة») كانت تشكل دوماً امتداداً للفصائل الفلسطينية عامة، و«حماس» خاصة، كما لن يوجب ذلك منها إلا التعاطف البارد.

إن القول لأهل غزة من داخلها: انظروا إلى ما يحدث في حلب، إنه أكبر مما يرتكبه الإسرائيلي بحقكم. وهو ادعاء باطل وغير منطقي. يعني تهيئة نفسية لمن خارجها بغض النظر عما سيحدث، والذهاب إلى تساؤل داخلي يقول: لماذا سنطلب من إسرائيل أن تكون رحيمة بنا ونحن لسنا رحماء بين أنفسنا؟ لعلّ هذه أولى وأبسط نتائج الكذب والتضخيم ضمن مصالح سياسية بالدرجة الأولى.

وإذا تحدث قائل عن الموقف الديني أو الإنساني، فإنه فعلاً كان يمكن الاكتفاء ببيان واحد منذ بداية الأحداث لا السعي إلى تجزيء المواقف ثمّ تنظيم حملات وصرخات، لأن هذا التتابع يصنع في العمل السياسي ما يسمى الدفاتر المغلقة التي لها موعد لفتحها، فضلاً على ما يسببه تحشيد التراكمات داخل البيئات المجتمعية القريبة منا والبعيدة.

يكفي أن أكبر فصيل مقاوم في غزة، ويمثل القوة الحاكمة للقطاع، حشد في ذكرى انطلاقته القضية المركزية صوب حلب، دون أن يرفع شعاراً مركزياً آخر، خاصة أنه في هذه السنة لم يحدث الناس أو جمهوره عن فك الحصار أو الأفق المعيشي أو فتح المعابر أو المصالحة أو الكهرباء أو حتى قضية الأسرى، بل ذهب إلى جعل الوجه المقاوم (المسلحين) يشاركون الجمهور في التفاعل رغم صدور تعميم مسبق من القيادة العسكرية بمنع المشاركة في أي حملات تتعلق بالشأن الخارجي، وفق بعض المعلومات الصحافية، لكن ما حدث كان العكس!

إن زيادة الأعداء صارت سلوكاً فلسطينياً عاماً بعدما شعر الفلسطيني بكمّ الغدر والخيانة لقضيته المركزية، بل ذهب إلى حدّ التفاوض مع الاحتلال من جهة، وبناء العلاقة مع من سوف يسلم رقبته للاحتلال من جهة أخرى. ومثلما تُحذَّر دول مثل الخليج والأردن وتركيا من تبعات الإرهاب ـ التكفيري الذي بدأ يلامسها، يخشى أن يأتي إلى غزة يوم شبيه، رغم أن الفارق الأساسي في ضبط القطاع هو المساحة الصغيرة له وكثافة مصادر المعلومة والأمن لدى الأجهزة المختصة، لكن: ماذا لو عمل التكفيريون على تغيير استراتيجيتهم يوماً ما ـ وهو ما بدأت علاماته بالظهور ـ ووجدوا بيئة جاهزة لقبولهم بعد هذا الضغط المتواصل من التأطير والتنظير؟ ربما يكون سيناريو مستبعداً وقد يوصف بأنه ضرب من الخيال، لأن هذا دوماً هو النوع المحبب لنا من التفكير، لكنّ التاريخ يؤكد أن من يزرع ثمراً فاسداً لا يحصد سوى الندامة، ونرجو ألا تكون.

أمّا عن الصّورة العامة للقضية الفلسطينية ونظرة العرب والمسلمين إليها بعد هذه الأحداث طوال ست سنوات مضت، وما يمكن أن يقال أو يفعل خلال أي حرب مقبلة على غزة، فإن الإجابة برسم من لم يكتفِ بالبيانات والمظاهرات، وأطلق أجهزة الأمن لترهب من خالف الجوّ الذي حشّد له، لو تلميحاً.

* من أسرة «الأخبار»

ترامب... كلاهما؟

إن فشل الرهان الإسرائيلي على إدامة الانتحار العربي-العربي، سيقوده لسرعة الاعتماد المباشر على نفسه لضمان حياة نظرية (العربي الجيّد هو العربيّ الميّت) وهو في غمرة الحدث السوري، ومن خلفه تطورات المشهد على الفرات العراقي، بما يعنيه من تغيرات جيواستراتيجية يقف فيها الإيراني ليستثمر كل تطوّر، حتى لو ظهر فيها الأميركي بطلاً في الجوّ ومن خلف الستار العراقي في أحيان أخرى، فإن الإسرائيلي يدرك خطورة الفضاءات الجديدة التي يمكن أن تتحرك في ظلها المقاومة اللبنانية والفلسطينية، وهي فضاءات عسكرية-سياسية، وربما يحفها سياق دولي ناهض تحاول فيه روسيا أن تتلمّس مصالحها في ظل تغيّراته، وهي تدرك حساسية البعد الإسرائيلي، ولكن روسيا تعلمت من درسيّ ليبيا القذافي وعراق صدام أن مصالحها فوق كل اعتبار. لن يطول الزمن أمام اختراع الإسرائيلي لمبررات التدخل الواسع في لبنان، وليس تسليح حزب الله ببعيد، فهو أصل الأزمة منذ بدايتها، فقد هُزم الإسرائيلي عام 2006 أمام الصمود اللبناني، وقد تقرر عبر لجنة فينوجراد أن يستعيد الإسرائيلي زمام المبادرة خلال خمس سنوات، جاءت خاتمة السنوات الخمس عام 2011 حيث اشتعل الصراع الذي دخله حزب الله دفاعاً عن خاصرته، ليقف الإسرائيلي منبهراً وهو يرى خصمه اللدود يخوض معركة قاسية تحت أنظاره، ولا يمنعه ذلك من التدخل النوعي المحدود متى شاء.

لكن أما وقد أخذ الصراع العربي يتراجع، ولم يعد للضربات الإسرائيلية المحدودة أثراً مفصلياً، فيما تعاظمت قدرات حزب الله أضعافاً مضاعفة كمّاً ونوعاً وخبرة، في ظل استقرار تام في الساحة اللبنانية، وهو استقرار أمني - سياسي أخذ يقنع بسلاح حزب الله كضمان للسلم الأهلي في مواجهة الاحتراب القادم من الخارج، سواء كانت حروفه عربية أو عبرية، فإن الحرب الإسرائيلية تبدو اليوم خيار الضرورة لإعادة عقارب ما بعد حلب للوراء.

لن تكتفي إسرائيل بالضمانات الروسية ألّا تنعكس تطورات المشهد عليها سلبياً

وقد يبدو التناغم الأميركيّ في ظل رئاسة ترامب القادمة مع الروسي، خيار تهدئة في الملف العربي باعتبار مواقف ترامب الحاسمة نظرياً ضد التطرّف الإسلامي، وهو تطرّف اعتلى المشهد السوري - العراقي، ربما الأمر كذلك، ولكن تطرّف ترامب المعلن لم يكتفِ ببعض المسلمين، ليطال عامتهم، بما يؤكد أن أميركا في ظل عقلية ترامب مرشحة أكثر للانغماس في الصراع ضد المسلمين، وخاصة ضد الطرف المرشح للانتصار في الصراعات الداخلية الراهنة، في ظل عاملين أساسيين، أولهما العامل الإسرائيلي الضاغط، والمتحفّز طوال الوقت ضد أعدائه الثلاثة الرئيسيين، وقد أعلن عن خطورتهم بالترتيب: حزب الله - إيران - غزة، وهو عامل حاسم في ظل انكباب ترامب المتسارع في مصلحة الإسرائيلي، بشكل غير مسبوق في التاريخ الأميركي الرئاسي.

العامل الثاني هو نظرة ترامب لإيران، وتهديده لها بإلغاء الاتفاق النووي، وتحذيراته لها عسكرياً في مياه الخليج العربي، وهي تهديدات أخذت تظهر حتى قبل تسليم أوباما للرئاسة عندما بادر الأسطول الأميركي بفتح النار على سفن إيرانية مؤخراً.

تبدو خريطة الصراع الراهنة مرشحة لتغيّرات هائلة بعد حلب والموصل، ولعل شهور ترامب الأولى في البيت الأبيض، في ظل خطط إسرائيلية جاهزة لتجاوز قرارات الأمم المتحدة فلسطينياً، عبر خلق وقائع إقليمية جديدة، ميدانها الفسيح لبنان-سوريا، بما يفتح الباب على مصراعيه لكل الاحتمالات من باب المندب حتى معبر رفح، ويبقى السؤال الملّح؛ هل ينجح ثنائي ترامب - نتنياهو ومن خلفهما رعاع الخليج في احتواء ما أفرزته تطورات حلب والموصل؟ وهل سيدفع ذلك محور الممانعة لليقين أن الاشتباك الميداني المباشر مع الإسرائيلي أمر لا يمكن تجاهله طوال الوقت، وربما يكمن فيه الحل الحاسم للخروج من مأزق الاحتراب الداخلي؟

* كاتب وباحث فلسطيني